الإهداء

إلى الأستاذ سمير ..

سمير تادرس الكاتب الصحفي الكبير بحق ..

سمير النقابي بدون منصب ، ذلك لأنه يقول ما يعتقد ويفعل ما يقول ..

إلى سمير الإنسان الجميل في مواجهة كل قبح في المهنة و النقابة والحياة .

كارم يحيى

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

obeikandi.com

شئ غريب حدث لي بحلول ديسمبر ٢٠١٠ . شئ لا أجد له تفسيرا بحساب الورقة والقلم. وبقياس العقل والمنطق . كنت قد دخلت قبلها لنحو ثلاثة أعوام في حالة من اليأس من حال الصحافة المصرية ومن حالي كصحفي له توجهه المستقل، و يعمل في جريدة «الأهرام». توقفت خلال هذه السنوات عن الكتابة في نقد هذه الصحافة. أو كدت أن أتوقف . و اكتفيت بالمقاومة السلبية . تقوقعت على النفس تقريبا . ودخلت في نوع من الاكتئاب على ما يبدو .

هل هو العمر الذي تقدم ، فتجاوزت الخمسين عاما ؟. أم هو اليأس من أي فرصة للتغيير ؟. أم هي تراكمات معارك تلو معارك بدت هباءً منثورا ؟ . أم هي مزيج من اعتبارات عامة وأيضا شخصية لا مجال للخوض فيها هنا ؟.

الشئ الغريب الذي حدث أنني فجأة ـ وكأنه بدون مقدمات ـ نفضت عن كاهلي اليأس والسلبية . وانخرطت في الكتابة النقدية مرة أخرى . بدأ الأمر تماما فور الجولة الأولى مما أصبح معروفا بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ بآخر انتخابات برلمانية في عهد «مبارك» (انتخابات مجلس الشعب نوفمبر / ديسمبر ٢٠١٠) . ومع أنني كنت من بين من رأى حينها أنه لا جدوى من خوض أية انتخابات ،طالما بقى النظام السياسي على ما هو عليه من انغلاق و تدهور . بل وانحطاط . إلا أنني وجدتني فجأة منفعلا بفجاجة التزوير . هكذا ضبطت نفسي مستثارا بما رأيت وسمعت من انتخابات اعتبرتها ميتة ومزورة قبل أن تبدأ. والمفارقة أنني لم أكن يوما من أصحاب المصلحة ـ ولو بالانتماء الفكري والسياسي ـ في المشاركة في هذه الانتخابات أو من المتضررين من هكذا تزوير

فاضح. إذا أنني لم أكن يوما محسوبا على جماعة « الإخوان المسلمين » المتضرر الأكبر من التزوير أو على أحزاب «المعارضة» شريك اللعبة .

هكذا بعد نحو ثلاثة أعوام من «البيات اليأسي»، كتبت مقالا على هيئة خطاب مفتوح هادئ المظهر صاخب الجوهر ، بعنوان :«رسالة من صحفي بالأهرام إلى الدكتور عبد المنعم سعيد : استقل من الوطني ؟» ، وكان وقتها رئيسا لمجلس إدارة المؤسسة. و لأهمية هذا النص في رحلة الكتابة النقدية عن الصحافة بالنسبة لشخصي المتواضع اخترت أن أستهل به مواد هذا الكتاب . ولم يكن الأمر يتعلق بأن المقال في حد ذاته انطوى وقتها على جرأة ومخاطرة . بل بالأصل وببساطة لأنني بعدها تدفقت في هذه الكتابة على نحو لم أعرفه قط . ويفتتح هذا النص الفصل الأول من الكتاب . وهو يضم خمسة نصوص أخرى بين المقال والدراسة النقدية ، تفضح أوجه مختلفة من العلاقة الحرام بين السلطة والثروة والفساد والصحافة في الأيام الأخيرة من عهد «مبارك ». ولعل في ذلك السبب الأهم في أن تحتل هذه النصوص الفصل الأول .

أما الفصلان الثالث والرابع فقد عادا بالقارئ بعد صخب تفاعلات ثورة ٢٥ يناير في الفصل الثاني إلى تراكم الوعي والفعل في السنوات السابقة على هذه الثورة . وتشغل رواية المؤلف لتجربة حركة « صحفيون من أجل التغيير » في عام ٢٠٠٥ الفصل الثالث من خلال عدد من وثائق الحركة . سواء تلك الجماعية أو الفردية التي كتبها المؤلف بوصفه أول منسق عام لها. وقد اتضح لاحقا أنه منسقها الأخير أيضا ، بعدما خذلتنا أو خذلنا نحن صيغة القيادة الجماعية التي انتهينا إليها بعد تقديم استقالتي. وقد كنت من المتحمسين إلى انتخاب قيادة جماعية منذ البداية . وانتهينا ـ بعد الاستقالة ـ إلى خمسة زملاء أنيط بهم دفع مسار الحركة إلى الأمام ، إلا أن الظروف الموضوعية والذاتية لم تمكنهم من القيام بالمهمة . و ينتهي الكتاب بعيدا عن كل هذا الصخب بالعودة إلى المقالات النقدية مع الفصل الرابع الأخير ، وذلك في ستة نصوص جرى كتابتها ونشرها حول عام ٢٠٠٧ . و كلها يتناول الشأن الصحفي والنقابي المأزوم في السنوات الأخيرة من عهد « مبارك ».

ومع أن حركة « صحفيون من أجل التغيير » لم تتجاوز في أوج نشاطها نصف عام ، وإن استمرت تنشط من حين لآخر على مدى أكثر من عام لاحق. إلا أن هذه الأشهر

المعدودة كانت حافلة بالمعارك وبمحاولة الفعل والتأثير . ولا يتوقف الأمر على الأدبيات التي تعكس وعيا بمعضلات حرية الصحافة في مجتمعنا كما تجسدت في بياناتها وفي الأوراق التي جرى إعدادها للنقاش في ندواتها ومؤتمراتها . لكن الحركة بادرت بمحاولة النزول إلى الشارع للتظاهر من أجل حرية الصحافة ، فتصدي لها أمن « مبارك » وقمعها بشراسة في ٣٠ يونيو ٢٠٠٥ . و أن عادت الحركة لتنضم إلى الوقفة الكبرى للصحفيين أمام مجلس الشعب في ٣ يوليو من العام نفسه بدعوة من نقابتهم للمطالبة بإلغاء عقوبة الحبس في قضايا النشر.و حينها نجحت الحركة في تنفيذ مسيرتها في الاتجاه العكسي هذه المرة (من مجلس الشعب إلى النقابة) . وليبدأ بعدها عدد من أنبل أعضائها إضرابا عن الطعام للغرض ذاته .وهم الزملاء الأعزاء : «أحمد الحضري» و« فارس خضر » و «محمود خير الله » وفق الترتيب الأبجدي . ولا يفوت هنا أن ننوه إلى أن الحركة رعت عدة ندوات وفعاليات صادفت اهتماما وتقديرا . ولا أستطيع أن أنسى ـ شخصيا ـ الثناء الذي أغدقه الدكتور «أسامة الغزالي حرب » على تنظيم الحركة لأول مناظرة فريدة من نوعها بين مرشحي منصب نقيب الصحفيين قرب نهاية عام ٢٠٠٥ ،وما أتسمت به من حيادية وموضوعية . وكذلك من ابتكار في طرح السؤال تلو السؤال على المرشحين كافة في وقت محدد ومتساو للإجابة . وكي يتاح لجمهور الناخبين المقارنة تفصيلا وتدقيقا بين مواقف كل من تفضل من المرشحين و قبل المشاركة في هذه المناظرة الفريدة.

وفي الظن فإن عام ٢٠٠٥ يستحق وقفة خاصة من مؤرخي التاريخ السياسي الاجتماعي لمصر ، نظرا للزخم المتبدى في مولد العديد من الحركات المناوئة لتحالف الاستبداد والفساد الحاكم :« كفاية » (بالأصل ولدت قبل العام بأيام في ١٢ ديسمبر ٢٠٠٤)و «استقلال القضاء» في أحدث طبعاتها.و آخرا وليس أخيرا حركة « صحفيون من أجل التغيير ». والظاهر أن غالبية هذه الحركات ـ وإن لم نقل كلها ـ مر بمرحلة تألق لم تستمر طويلا . وإن تركت آثارها وفضلها على ما تلى ذلك من خروج كبير للشعب المصري وكسره حاجز الخوف . وربما تخفف تلك النظرة الآن وعلى بعد نحو خمس سنوات ويزيد من حدث ثورة ٢٥ يناير عن المؤلف وطأة ما أحسه من إحباط لمآل «صحفيون من أجل التغيير » ، وجراء الإخفاق في استمرار تجربة في العمل الجماعي

والحوار الديمقراطي بين الصحفيين ، على تنوع مشاربهم الفكرية السياسية وعلى ما يقال عنهم من تضخم الذات وشيوع وعلو الفردية والمظهرية. لكن كل ما شعرت به من مرارة ـ ربما يعكسها التقرير الختامي الذي قدمته عن فترة مسئوليتي كمنسق لها ـ لا ينسيني أبدا إخلاص وتفاني زملاء أعزاء شاركوا جهد « صحفيون من أجل التغيير » . أذكر من بينهم أيضا : الأساتذة « أحمد هريدي » و « ساهر جاد » و«سمير حسين » و«عادل عبد المنعم » (توفى إلى رحمة الله) و« فراج أبو النور » و « عبد الخالق فاروق» و« عبد العال الباقوري » و« منال عجرمة »و « محمد هزاع » وغيرهم، وفق الترتيب الأبجدي مع حفظ الألقابَ و المقامات . كما أن الحديث في هذا الكتاب عن هذه الحركة لا يعنى بالقطع إنكار فضل غيرها من الحركات والجماعات واللجان التي تشكلت في رحم نقابة الصحفيين وسعت للخروج على إيقاع رتيب متهالك فرضته سطوة « الإقطاع الصحفي السياسي » على مقدرات هذه النقابة . وأذكر من بين هذه الحركات المستمرة المتصلة النشاط « لجنة الوعي النقابي» وتقريرها الشهري لزميلنا الأستاذ « على القماش » .

أما قوام هذا الكتاب وثقله فيتمثل في الفصل الثاني بعنوان « على هامش الثورة ». ويذخر هذا الفصل بسبعة عشر نصا على هيئة مقالات تتفاوت في المساحة وفي الاهتمام بين أحوال الصحافة القومية بوجه عام ونقابة الصحفيين وصحيفة «الأهرام» على وجه خاص . وقد دعمت جانبا من هذه المقالات بالوثائق الفردية والجماعية (بمثابة نصوص فرعية)، وبخاصة عن «الأهرام »والنقابة في ذروة أيام ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ . وتمتد الفترة الزمنية التي تغطيها غالبية هذه النصوص / الوثائق إلى ما بين نهاية شهر يناير ٢٠١١ و مطلع شهر إبريل ٢٠١١ . ويرتبط التاريخ الأخير بأول حركة تغيير في القيادات بالصحف القومية بعد الثورة .

ومع أن هذا الكتاب لا يختص بالتأريخ لتفاعل صحفيي مؤسسة «الأهرام »وجريدتها الرئيسة « الأهرام اليومي » مع ثورة ٢٥ يناير . إلا أنه استلهم عنوانه من أربعة أجزاء معنونة باسم «الأهرام .. تمرد في الثكنة » . و هذه الأجزاء هي محاولة مبكرة للتأريخ لما حدث بالأهرام اليومي ـ أكبر إصدارات المؤسسة وقلب الثكنة الأضخم و الأعرق ـ من شد وجذب وصراعات في مرحلة بالغة الأهمية من تاريخ الصحافة المصرية . وهذه المحاولة لها عيوب ومزايا.

من جانب ، نحن أمام محاولة تسجيل وقائع قائمة على رؤية شخص واحد طرف في الأحداث . هو كاتب النص . وهذا أمر يطعن على روايته المسجلة هنا بالذاتية . وخاصة أنه لم يكن مجرد شاهد على الأحداث ، بل كان متفاعلا فاعلا أيضا في هذا الحدث أو ذاك . ولا حيلة ولا شفاعة للكاتب الفاعل الشاهد هنا إلا أن يشدد مرة تلو مرة أن ما كتب هو حدود ما رأى وما سمع وما فعل وما جمع من نصوص / وثائق . وحسبه أن يدعو زملاءه في مؤسسة «الأهرام» بتعدد إصداراتها إلى المسارعة في كتابة رواياتهم عن هذه الأيام الصعبة والدقيقة ..والجليلة أيضا في تاريخ الصحافة والبلد. وكذلك حسبه أن يدعو الزملاء في مختلف الصحف المصرية خارج مؤسسة «الأهرام» أن يتفضلوا بكتابة ما شهدوا و فعلوا وجمعوا من نصوص / وثائق ، وحتى يتسع مجال الرؤية و يتوافر لمن يأتي من مؤرخي صحافة وتاريخ هذا البلد ما يسمح بكتابة أكثر شمولا وموضوعية . وحسب كاتب هذا النص الماثل بين يدي القارئ ،بما يتوافر فيه من نصوص / وثائق ناجمة عن غيره أيضا ،أنه حاول قدر الإمكان توخي الموضوعية في الحكم والتحليل و أن يوفر لقارئ المستقبل مادة تعينه في بناء صورة أكثر دقة . وكل هذا لا يغفر للكاتب تقصيرا هنا أو هناك قد يراه بعض الفاعلين أو الشهود فيما كتب . وكل ما يأمله أن يتسع صدر من ورد ذكر أسمائهم في هذا الكتاب بالنقد أو من لم ترد أسماؤهم بالسهو، وأن يغفر الجميع له أي شطط وقع في الأحكام والألفاظ هنا أو هناك .

ولعل من النقائص التي قد يراها البعض في هذا الكتاب أن العديد من وقائعه مفتوح على تطورات مستقبلية . ويصدق هذا إلى حد كبير على العديد من البلاغات المقدمة إلى النائب العام والواردة هنا بمثابة نصوص / وثائق منسوبة إلى مقدميها الطامحين في استجلاء ما بها من إهدار جسيم للمال العام في هذا البلد . وهذه نقيصة ترجع بلا شك إلى أننا نكتب عن أحداث ما زالت طازجة . وإن كنا نخشى مع آخرين أن تذهب كل هذه البلاغات مع غيرها أدراج الرياح وطي النسيان ، في ظل ظنون ـ لها شواهدها ــ على أن أيا من هذه البلاغات المقدمة بشأن «الأهرام» خاصة والصحافة المصرية عامة لم تلق التحقيق الجدي الناجز بعد .

ومن جانب آخر ، فإن نص الكتاب على حاله هذه لا يخلو من مزايا مأمولة عند

كاتبه . فهو على الأقل يسمح لقارئه أن يتبين لونا من النصوص النادرة عن كواليس ما يجرى في الصحف المصرية . وفي الظن فإن نصوص الكتاب المنسوبة لقلم كاتبه أو تلك التي شارك في صياغتها مع آخرين تسمح ببلورة رؤية نقدية متكاملة إلى حد ما . لا عن واقع صحافتنا. بل وأيضا عن مستقبلها ، وبخاصة تلك الصحافة القومية التي سينفتح أوسع جدل متوقع حول مصيرها في الأيام المقبلة حتما مع التغييرات السياسية التي تشهدها مصر بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ . ولعل من المزايا المأمولة لهذا الكتاب أيضا أن يستثير همة الزملاء ـ اتفقوا أو اختلفوا مع ما ورد فيه هنا أو هناك ـ كي يشمروا السواعد ، و يشرعوا في المزيد من الكتابة حول الشأن الصحفي المصري إبان ثورة ٢٥ يناير وقبلها وبعدها .

ما يطمح إليه هذا الكتاب بما يحويه من نصوص / وثائق أن يعين قارئ الصحف ـ لا باحث الإعلام والتاريخ فقط ـ على معرفة غير ميسرة تسمح له بإطلاع غير غافل على الأخبار والآراء التي تحويها الصحف . وهو هدف مستلهم من كلمة المؤلف على غلاف كتاب نقدي سابق عن الصحافة المصرية ، في عام ٢٠٠٥ بعنوان :« حرية على الهامش ». وقد صدرت طبعته الثانية من دار « العين » للنشر في يناير ٢٠١٢ . لتسبق إلى المطابع والمكتبات هذا الكتاب. ويوصف أن الكتاب السابق بمثابة تمهيد نظري ومنهجي لآراء وممارسات تتجلى في الكتاب اللاحق ، الذي بين يدي القارئ الكريم الآن .

ولا يسع الكاتب إلا أن يتوجه بالتقدير والامتنان إلى كافة الزملاء الذين شاركوه أيام التمرد في « الأهرام » . وعلى نحو خاص أولئك الذين تقدموا الصفوف في لحظات حرجة ،و مهما تفرقت السبل فيما بعد .و التقدير والامتنان وفق الترتيب الأبجدي مع حفظ الألقاب والمقامات إلى الأساتذة :«إبراهيم فهمي » و« أبو المعاطي السندوبي » و « أسامة الرحيمي » و « أسامة غيث » و « سعادة حسين » و « صباح حمامو » و « علاء العطار » و« فاتن بركات »و« كمال جاب الله » و « محمد حربي » و « يحيى قلاش » وغيرهم ممن خاضوا معارك الأهرام ونقابة الصحفيين . كما لا يسعني بذات القدر من الإخلاص إلا أن أعتذر إلى كل من ورد أسمه في وقائع محل إدانة أو انتقاد حاد. وفي كل الأحوال أتمنى أن يتحملوا جميعا ما في هذا الكتاب من نقد ، طالما كان يهدف إلى

الصالح العام . و أقول صادقا أنني في كل ما كتبت ــ ومهما بلغت درجة الحدة ــ لم أستهدف تشهيرا بأحد كان بهدف المساس بشخصه ،و أيا كان التصور بشأن جنايته على الصحافة وعلى أجيال من الصحفيين .

فقط فإن دافعي وما زال هو مستقبل أفضل بالتعلم من الأخطاء والخطايا .وحسبي أنني سعيت لاستثارة الخصوم المحترمين قبل الحلفاء المحترمين للكتابة . والمزيد من الكتابة في شأن الصحافة المصرية ـ حاضرها ومستقبلها ـ سواء بالاتفاق أو المخالفة لما ورد هنا في هذه الصفحات.

والخلاصة أن في هذا الكتاب شتات من خبرة فكر وعمل عن الصحافة على مدى خمس سنوات وتزيد سبقت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ و في أثنائها. أصبت فيها وأخطأت . حاولت خلالها الحركة للأمام عبر مجموعات . فنجحنا حينا وفشلنا أحيانا . لكن الأكثر قسوة على النفس في بلد كمصر علم العالم فن البناء أن نبدو دائما ــ وكل مرة ــ وكأننا نبدأ من جديد .. من أول السطر .

لهذا كان هذا الكتاب . لعلنا نبنى على ما كان من جهد وتضحية وفكر وعمل . وهذا كله من أجل المستقبل ولمن يأتي بعدنا .

المؤلف

القاهرة ـ مارس ٢٠١٢

openkandil.com